□ عُلُوُّ هِمَّة الشُّيُوخ □

اعلم يا أخي أن الشَّيْب جلَّةٌ ووَقَار ، ونورٌ للعبد ومَنَار ، فبياضُ الصُّبح في السَّدَف :

تَفَاريقُ شَيْبٍ في السَّوادِ لَوَامِعُ ... وما خيرُ ليلٍ ليس فيه نجومُ

عن كعب بن مرَّة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ شابَ شَيْبَةً في الإسلام ، كانت له نورًا يوم القيامة »(١) .

وعن عمرو بن عبسة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَن شابَ شيبةً في سبيلِ الله ، كانت له نورًا يوم القيامة »(٢) .

وقال ﷺ : « إنَّ مِنْ إجلالِ الله : إكرامَ ذي الشَّيْبَةِ المُسْلِم ، وحامل القرآن ، غير الغالي فيه والجافي عنه ، وإكرام ذي السُّلْطان المُقْسِط »(٣) .

أهلًا وسهلًا بالمَشيبِ فإنَّه ... سِمَةُ العفيفِ وحِلْيَةُ المُتحرجِ
وكأنَّ شَيْبي نَظْمُ دُرٍّ زاهِرٍ ... في تاجِ ذي ملكٍ أغَرَّ مُتَوَّجِ

ولله درُّ القائل :

إنَّما تَحسُن الرِّياضُ إذا ما ... ضحكتْ في خلالها الأنوارُ

والقائل :

---

(١) صحيح : رواه الترمذي والنسائي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦١٨٣) .

(٢) صحيح : رواه أحمد ، والترمذي ، والنسائي ، وابن حبان ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦١٨٤) .

(٣) حسن : رواه أبو داود عن أبي موسى الأشعري ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٢١٩٥) .

وعائبٍ عَابَني بشَيْبِــي لم يَعْدُ لَمَّا أَلَمَّ وقْتَـهْ
فقلتُ إذْ عابني بشيبي يا عائِبَ الشَّيْبِ لا بَلَغْتَهْ

وقال ﷺ : « خيرُ الناس مَنْ طالَ عُمرُهُ وحَسُنَ عَمَلُه »[(١)] .

وقال ﷺ : « خيرُ الناسِ مَنْ طال عمرُه وحسُنَ عملُه ، وشرُّ الناس مَن طال عمرُه وساء عملُه »[(٢)] .

فلله درُّ أُناسٍ طال عمرهم وعَلَتْ هِمَمُهم وحسُن عملُهم .

قال البخاريُّ في كتاب العلم: «وقد تعلَّم أصحابُ النبي ﷺ في الكِبَر».

وهناك أمثلة عَطِرة على مَنْ عَلَتْ همَمُهم ، فكانوا أُسُودًا في هممهم ، تفخر بهم الدنيا وتطيب .

أبو أيوب الأنصاري يُقاتل لفتح القسطنطينيَّة وهو شيخ :

عن أبي ظبيان قال : أَغْزَى أبو أيوب ، فمرضَ ، فقال : إذا متُّ فاحملوني ، فإذا صافَفْتُم العدوّ ، فارموني تحت أقدامكم ، أما إني سأُحدِّثكم بحديث سمعته من رسول الله ﷺ ، سمعتُه يقول : « مَنْ مات لا يُشرِك بالله شيئًا ، دخل الجنة »[(٣)] .

هذه حاجة أبي أيوب وهو يجود بروحه ، تُعجِز وتُعْيي كلَّ تصور وكلَّ تخيل لبني الإنسان !! أتحسبون هذا شعرًا ؟! لا .. ولا هو خيال .. بل واقعٌ .. وحقٌّ شَهِدَتْه الدنيا ذات يومٍ ، ووقفتْ تُحدِّق بعينيها وبأُذُنيْها ، لا تكاد تصدِّق ما تسمع وما ترى . ولقد أنجز يزيد وصيَّة أبي أيوب ، وفي قلب القسطنطينية –

---

(١) صحيح : رواه أحمد والترمذي عن عبد الله بن بسر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٢٩١) .

(٢) صحيح : رواه أحمد والترمذي والحاكم عن أبي بكرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٢٩٢) .

(٣) إسناده قوي : رواه أحمد والطبراني ، ومتن الحديث روي عن غير أبي أيوب ؛ فقد أخرجه البخاري ومسلمٌ من حديث ابن مسعود ، ومسلمٌ من حديث جابر ، والبخاري ومسلم من حديث أبي ذرٍّ .

وهي اليوم إستانبول - ثوَى جثمانُ رجُلٍ عظيم ، جدّ عظيم !!

أراد أن يكون مثواه الأخير حيث يزحف جيش الإسلام، وتَخْفُق الأعلام، وتَصْهَل الخيول ، هناك حيث صلصلة السيوف .

ألم يكن شعاره في ليله ونهاره ، في جهره وإسراره: «قال الله: ﴿**انْفِرُوا خفافًا وثقالًا**﴾ [التوبة : ٤١] . لا أجدني إلّا خفيفًا أو ثقيلًا » .

رضي الله عمن قضى حياته في أشواق عابدٍ .. يُؤمن بالنصر ، ويرى بنور بصيرته بقاع القسطنطينية ، وقد أخَذتْ مكانها بين واحات الإسلام ؛ ودخلتْ مجال نوره وضيائه .

عبد الله بن حرام : من كلَّمه الله كفاحًا :

وفي قصَّة استشهاد عبد الله بن حرام جَلالٌ تنحني له الحياة ، إعزازًا للأُبُوَّة الرقيقة التي جادتْ بنفسها واستودعتِ الله أُسرةً من غلامٍ واحدٍ وستّ بناتٍ !

روى أبو داود والنسائي، عن جابر بن عبد الله قال: «خرج رسول الله ﷺ من المدينة إلى المشركين يُقاتلهمْ ، وقال لي أبي : يا جابر ، عليك أن تكون في نظاري أهل المدينة حتى تعلم إلام يصير أمرُنا ، فإني والله لولا أني أترك بناتٍ لي بعدي ، لَأحببتُ أن تُقتَل بين يديَّ قال : فبَيْنَا أنا في الناظِرين ، جاءت عمَّتي بأبي وخالي ، عادَلَتْهما على ناضح ! فدخلت بهما المدينة لتدفنهما في مقابرنا ؛ إذ لحَق رجلٌ ينادي : ألا إن النبي ﷺ يأمركم أن ترجعوا بالقتلى فتدفنوهم في مصارعهم . فرجعنا بهم فدفناهما حيث قُتلا .. » .

وروى البخاري عن جابر أيضًا: «لَمَّا حضرَ أُحد- يعني القتال عند الجبل وفوقه - دعاني أبي من الليل فقال لي : ما أراني إلّا مقتولًا في أوّل مَنْ يُقتل من أصحاب النبي ﷺ، وإني لا أتركُ بعدي أعزَّ عليَّ منك غير نفس رسول الله ﷺ ! وإنَّ عليّ دَيْنًا ، فاقْضِهِ واستَوص بأخواتك خيرًا . فأصبحنا .... وكان أوَّل قتيلٍ » .

خرج الصَّحَابِيُّ الجليل مع رسول الله ﷺ تاركًا وراءه هذه الأُسرة الكبيرة ، وقوامها ستُّ بناتٍ يَحْتَجْنَ إلى الكافِل الحاني .

إن صاحب المبادئ سُرَاعٌ إلى تلبية مبادئه عندما يقرع باب الكريم وهو يقول :

فقمتُ ولم أجثمْ مكاني ولم تقُمْ مع النَّفْس علّاتُ البخيلِ الفواضِحُ

وروى الترمذي عن جابر قال : لقيني رسول الله ﷺ مرة وأنا مُهتمٌّ ، فقال : « ما لي أراك مُنْكَسِرًا ؟ » فقلتُ : اسْتُشهدَ أبي يوم أُحُدٍ ، وترك عيالًا ودَيْنًا . فقال : « ألا أُبَشِّرُك بما لقي الله به أباك » ؟ قلت : بلى! قال: « ما كلَّم الله أحدًا قطُّ إلَّا مِنْ وراءِ حجابٍ ، وإنَّه أحيا أباك فكلَّمه كفاحًا[1] ، فقال : يا عبدي ، تمنَّ عليَّ أُعْطِكَ . قال : يا ربّ ، تُحييني فأُقْتَل ثانيةً . فقال سبحانه وتعالى : إنه قد سَبَقَ مني أنهم لا يرجعون » . فنزلتْ : ﴿ **ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا** ﴾ [آل عمران : ١٦٩] .

والمرء يَحَارُ من كرامة الشهيد على الله .

إن أبا جابر لم يستشعر وحشةً لفراق أولاده ، ولم تَسْتشرِف نَفْسُه للاطمئنان على فلذات كبده ، بل تطلَّع للعودة إلى الدنيا كيما يذهل مرةً أُخرى عن أحبِّ شيءٍ فيها ، ويتمشَّى بخُطًى ثابتةٍ إلى ساحة القتال[2] .

موسى بن نُصَيْر : فاتحُ الأندلس وهو شيخ :

يذكر التاريخ لموسى وهو شيخ ، أنه فتَحَ المغرب الأقصى واستعاد فتح المغرب الأوسط، ويذكر التاريخ له أنه وهو شيخ، رَصَنَ الفتح الإسلامي في المغرب العربي، فأصبح شمال أفريقية عربيًّا إسلاميًّا إلى الأبد ، ويذكر التاريخ لهذا التابعي الجليل ، أنه وهو شيخ فتَحَ هو ومولاه طارقٌ الأندلس وقسمًا من جنوب فرنسا .

---

(١) أي مُواجَهَةً .

(٢) في موكب الدعوة ، للشيخ محمد الغزالي صـ ٥١ – ٥٣ .

ويذكر التاريخ له قولتَهُ وهو شيخ : « ما هُزمتْ لي رايةٌ قطُّ ، ولا فُضَّ لي جَمْعٌ ، ولا نُكِب المسلمون معي نكبةً منذ اقتحمتُ الأربعين إلى أن شارفتُ الثمانين .

يذكر التاريخ له وهو شيخ ، أنه قال وهو أمام حصنٍ من حصون الأندلس حاصَرَهُ بضعًا وعشرين ليلة : « أيها الناس ، إني متقدِّمٌ أمام الصفوف فإذا رأيتموني قد كبَّرتُ وحملتُ فكبِّروا واحمِلُوا » . فقال الناس : سبحان الله ! أترى فَقَدَ عقلَهُ أم عَزُب عنه رأيُه ؟ يأمرنا نَحمِل على الحجارة وما لا سبيل إليه ! فتقـدَّم بين الصفوف بحيث يراه الناس ، ثم رفع يديه بالدعاء والرغبة فأطال ، ثم كبَّر وكبَّر الناس ، وحَمَلَ وحملَ الناسُ .

لله درُّك من شيخٍ لا يعرف للمستحيل معنًى .

يذكر التاريخ له وهو شيخ ، أنه قال ببلاد الأندلس ، بعد أن أوْغَلَ في الفتح حتى جاوز «سرقسطة»: **أما والله لو انقادوا إلي لقُدْتُهم إلى رومية، ثم يفتحها** الله على يديَّ إن شاء الله .

ما شاب عَزْمي ولا حَزْمي ولا خُلُقي ولا ولائي ولا ديني ولا كرمي
وإنما طالَ رأسي غيْرُ صِبْغتِـهِ والشَّيْبُ في الرأس غيرُ الشَّيْبِ في الهِمَمِ

أبو عثمان النَّهْدي : الإمام الحُجَّة ، شيخُ الوقت :

قال رحمه الله : أتت عليّ ثلاثون ومائة سنة ، وما شيء إلَّا وقد أنكرتُهُ خلا أَمَلِي فإنه كما هو .

أدرك – رحمه الله – الجاهلية والإسلام ، وغزا في خلافة عمر وبعدها .

وقال : غزوت على عهد عمر ، وشهدتُ اليرموك والقادسية وجلولاء وتُستر ونهاوند وأذربيجان ومهران ورستم .

وحجَّ ستين مرَّةً ما بين حجَّة وعُمرة .

قال معتمر عن أبيه : كان أبو عثمان النهدي يُصلّي حتى يُغشى عليه .

وقال معاذ بن معاذ : كانوا يَرَوْن أن عبادة سليمان التَّيمِي من أبي عثمان

النهدي أخَذَها .

وعن المعتمر عن أبيه قال : إني لأَحْسَبُ أن أبا عثمان كان لا يُصيب دنيا ، كان ليله قائمًا ونهاره صائمًا ، وإنْ كان لَيُصلِّي حتى يُغشى عليه .

وقال عاصم الأحول : بلغني أن أبا عثمان النهدي كان يُصلي ما بين المغرب والعشاء مائة ركعة[(١)] .

شيخ الإسلام أبو رجاء العُطَارِدِي :

الإمام الكبير ، من كبار المُخَضْرَمِين ، أدرك الجاهلية وأسلم بعد فتح مكة ، عُمِّر عمرًا طويلًا أزيد من مائةٍ وعشرين سنة .

قال ابن الأعرابي : كان أبو رجاء عابدًا ، كثير الصلاة وتلاوة القرآن .

وكان يقول : ما آسى على شيءٍ من الدنيا إلَّا أن أُعَفِّر في التراب وجهي كلَّ يومٍ خمس مرَّات .

قال أبو الأشهب : كان أبو رجاء العُطارِدِي يختم بنا في قيامٍ لكلِّ عشرةِ أيامٍ[(٢)] .

ثابت البُناني : العابد الرَّبَّاني :

مات - رحمه الله - سنة سبعٍ وعشرين ومائة وهو ابن ستٍّ وثمانين سنة .

قال أنس بن مالك : إن للخير مفاتيح ، وإن ثابتًا من مفاتيح الخير .

وقال بكر المُزَنِيّ : من أراد أن ينظر إلى أعْبَد أهل زمانه ، فلينظر إلى ثابتٍ البُناني ، فما أدركنا الذي هو أعبدُ منه .

قال ثابت البناني : كابدتُ الصلاة عشرين سنة ، وتنعَّمتُ بها عشرين سنة .

---

(١) السير ٤ / ١٧٧ .

(٢) السير ٤ / ٢٥٣ - ٢٥٧ .

قال شُعْبَةُ: كان ثابت البناني يقرأ القرآن في كلِّ يومٍ وليلة، ويصوم الدَّهْر.

وقال حمَّاد بن زيد : رأيتُ ثابتًا يبكي حتى تختلف أضلاعُه .

وقال حمّاد بن سَلَمة : قرأ ثابت : ﴿ **أكفرتَ بالذي خلَقَك من ترابٍ ثم من نُطْفَة ثمّ سوَّاك رَجُلًا** ﴾ [الكهف: ٣٧]. وهو يُصلي صلاة الليل ينتحب ويُردِّدها.

وقال مبارك بن فضالة : دخلتُ على ثابتٍ فقال : يا إخوتاه،لم أَقْدر أن أُصلِّيَ البارحة كما كنتُ أُصلي ، و لم أقدر أن أصوم ، ولا أُنزل إلى أصحابي فأَذْكُر معهم ، اللَّهمَّ إذ حَبَسْتَني عن ذلك فلا تَدَعْنِي في الدنيا ساعةً[1] .

أبو إسحاق السَّبِيعي : الحافظ شيخ الكوفة :

عاش ثلاثًا وتسعين سنة .

قال أبو إسحاق : ما أَقَلَّتْ عيني غُمْضًا منذ أربعين سنة .

قال فضيل : كان أبو إسحاق يقرأ القرآن في كلِّ ثلاثٍ .

قال أبو الأحوص: قال لنا أبو إسحاق : يا معشر الشباب ، اغْتَنِمُوا– يعني قُوَّتكم وشبابَكم – قلَّما مرّتْ بي ليلة إلَّا وأنا أقرأ فيها ألف آية ، وإنِّي لأقرأ البقرة في ركْعَةٍ، وإنِّي لأصوم الأَشْهُرَ الحُرُم وثلاثة أيام من كلِّ شهرٍ ، والإثنين والخميس .

وقال أبو إسحاق أيضًا : ذهبت الصلاةُ منِّي وضَعُفْتُ ، وإني لَأُصلِّي فما أقرأ وأنا قائم إلَّا بالبقرة وآل عمران .

قال العلاء بن سالم العبيدي : ضعُف أبو إسحاق قبل موته بسنتين ؛ فما كان يقدر أن يقوم حتى يُقام ، فإذا استَتَمَّ قائمًا ، قرأ وهو قائم ألف آية .

قال عون بن عبد الله لأبي إسحاق : ما بقي منك ؟ قال : أقرأ البقرة في ركعة . قال : بقي خيرُك وذهب شرُّك[2] .

(١) السير ٥ / ٢٢٣ – ٢٢٥ .

(٢) السير ٥ / ٣٩٢ – ٤٠٠ .

عطاء بن أبي رَبَاح : مُفتي الحَرَم :

عاش تسعين سنة .

كان – رحمه الله – بعد ما كَبِر وضعُف يقوم إلى الصلاة فيقرأ مائتي آية من البقرة وهو قائم ، لا يزول منه شيءٌ ولا يتحرك(١) .

سحنون : سيد أهل المغرب :

راهب هذه الأُمَّة . مات وله ثمانون سنة .

كان الذين يحضرون مجلس سحنون من العُبَّاد أكْثَر من الطَّلَبَة ، كانوا يأتون إليه من أقطار الأرض .. ولمَّا وُلِّي سحنون القضاء بأَخَرَةٍ عُوتِب فقال : ما زلتُ في القضاء منذ أربعين سنة ، هل الفتيا إلَّا القضاء ؟!

همّ – رحمه الله – بتهذيب المُدوَّنة فأدركتْه المَنِيَّة .

ابن أبي حاتم الرَّازي : الإمام الحافظ شيخ الإسلام :

ولد سنة ٢٤٠ هـ ، ومات سنة ٣٢٧ هـ .

كان أبوه يقول : ومن يَقْوَى على عبادة عبد الرحمن ، لا أعرف لعبد الرحمن ذنبًا .

وقال أبو عبد الله القزويني الواعظ : إذا صلَّيتَ مع عبد الرحمن ، فسَلِّم نَفْسَك إليه يعمل بها ما يشاء .

وقال علي بن الحسن البصري ، وهو في جنازة ابن أبي حاتم : قَلَنْسُوَة عبد الرحمن من السماء ، وما هو بعجب ، رجلٌ ثمانين سنة على وتيرةٍ واحدة ، لم ينحرف عن الطريق .

الحُسين بن الفَضْل :

العلّامة المُفسِّر الإمام اللُّغوي المُحَدِّث، مات وهو ابن مائة وأربع سنين.

---

(١) السير ٥ / ٨٧ .

قال الحاكم : وكان يركع في اليوم والليلة ستمائة ركعة ، ويقول : لولا الضعْف والسِّنّ لم أطْعَم بالنهار .

قال الحاكم : كان إمام عصره في معاني القرآن ، أقْدَمَهُ ابنُ طاهر معه نيسابور ، وابتاع له دارًا فسَكَنَها ، فبقي يُعلِّم الناس ويُفتي في تلك الدار إلى أن توفِّي .

قال أبو القاسم المذكر : لو كان الحسين بن الفضل في بني إسرائيل ؛ لَكان ممَّن يُذكَر في عجائبهم .

الحَسَن بن سفيان : الإمام الحافظ ، يحفظ الأسانيد وهو ابن تسعين سنة :

قال الحاكم : سمعتُ محمد بن داود بن سليمان يقول : كُنَّا عند الحسن ابن سفيان فدَخَلَ ابنُ خُزَيْمَة وأبو عمرو الحِيريُّ وأحمد بن عليٍّ الرّازي ، وهم مُتوجِّهون إلى فراوة ، فقال الرازي : كتبتُ هذا الطبق من حديثك . قال هات . فقرأ عليه ، ثم أدخلَ إسنادًا في إسناد ، فردَّه الحسن ، ثم بعد قليل فعَلَ ذلك ، فلمَّا كان في الثالثة قال له الحسن : ما هذا ؟ قد احتملتُك مرَّتيْن وأنا ابنُ تسعين سنة، فاتَّقِ الله في المشايخ فربَّما استُجِيبتْ فيك دعوة. فقال له ابن خزيمة : مَهْ ، لا تُؤْذِ الشيخ . قال : إنما أردت أن تعلم أن أبا العباس يَعرف حديثه[1] .

الإمام الحافظ شيخ خراسان : أبو الحسين محمد بن محمد الحجَّاجي :

مات سنة ثمانٍ وستين وثلاثمائة ، وهو ابن ثلاث وثمانين سنة .

قال الحاكم : كان أبو الحسين من الصالحين المجتهدين بالعبادة ، قرأ القرآن على أبي بكر بن مجاهد ، صنَّف العلَل والشيوخ والأبواب ، وكان يمتنع وهو كهل عن الرِّواية ، فلمَّا بلغَ الثمانين لازَمَهُ أصحابُنا الليلَ والنهارَ حتى سمعوا كتاب العلل وهو نيِّف وثمانون جُزءًا ، و « الشيوخ » وسائر المصنَّفات . صَحِبْتُهُ نَيِّفًا

---

(١) السير ١٤ / ١٥٨ - ١٥٩ .

وعشرين سنة بالليل والنهار ، فما أعلمُ أن الملك كتب عليه خطيئة[1] .

شيخُ الحنابلة ابنُ عقيل :

قال ابن عقيل : عصمني الله في شبابي بأنواعٍ من العصمة وقصَرَ محبتي على العلم ، وما خالطتُ لعَّابًا قطُّ ، ولا عاشرتُ إلَّا أمثالي من طلبة العلم ، وأنا في عُشر الثمانين : أجد من الحرص على العلم أشدَّ ممَّا كنتُ أجدُه وأنا ابن عشرين ، وأنا اليوم لا أرى نقصًا في الخاطر والفكْر والحفظ وحِدَّة النظر بالعين لرؤية الأهِلَّة الخفيَّة ، إلَّا أن القُوَّة ضعيفة[2] .

ابنُ الجَوْزِيّ يقرأ العشر وهو ابن ثمانين سنة :

نالتْه محنةٌ في أواخر عمره ، وأُوذي كثيرًا ، حتى شفعت أُمُّ الخليفة وأطلقتِ الشيخ ، وأتى إليه ابنُهُ يوسف ، وما رُدَّ من « واسط » حتى قرأ هو وابنُهُ بتلقينه بالعشر على ابن الباقلاني وسِنُّ الشيخ نحو الثمانين .

قال الذهبيُّ : فانظر إلى هذه الهمَّة العالية[3] .

الحافظ السِّلَفِيّ :

قال رحمه الله :

أنا مِنْ أهْلِ الحَدِيـــ ـــثِ وهم خيرُ فِئَـــهْ
جُـــزتُ تسعين وأر جُو أنْ أُجُوزَنَّ المِئَهْ

وقد حقَّق الله رجاءه ، فقد جاوز المائة .

قال رحمه الله : لي ستون سنة بالإسكندرية ما رأيتُ منارتها إلا من هذه الطاقة . وأشار إلى غُرفةٍ يجلس فيها .

قال عبد القادر الحافظ : كان أبو طاهر لا تبدو منه جَفْوةٌ لأحد ، ويجلس

---

(١) السير ١٦ / ٢٤٠ - ٢٤١ .
(٢) االسير ١٩ / ٤٤٦ .
(٣) السير ٢١ / ٣٧٦ - ٣٧٧ .

للحديث ؛ فلا يشرب ماءً ولا يَبْزُق ولا يتورَّك ولا تبدو له قَدَمٌ وقد جاوز المائة .

وكان رحمه الله كأنه شعلةُ نارٍ في تحصيل الحديث وتدريسه .

قال المحدِّثُ وجيه الدين عبد العزيز بن عيسى اللَّخْمِيّ قارئُ الحافظ السِّلَفِي : لم يزل يُقرأ عليه الحديث يوم الخميس إلى أن غربت الشمس من ليلة وفاته ، وهو يَرُدُّ على القارئ اللَّحْن الخَفيّ(١) .

الإمام القُدْوة سُوَيْد بن غَفَلَة :

مات - رحمه الله - وهو ابن عشرين ومائة سنة .

عن الوليد بن علي ، عن أبيه قال : كان سويد بن غفلة يَؤُمُّنا في شهر رمضان في القيام ، وقد أتى عليه عشرون ومائة سنة .

وكان سُويد - رحمه الله - إذا قيل له : أُعطي فلان ووُلِّي فلانٌ ؛ قال : حَسْبِي كِسْرَتي ومِلْحي .

قال عليُّ بن المديني : دخلتُ منزل أحمد بن حنبل ، فما شَبَّهْتُهُ إلَّا بما وُصِف من بيت سُوَيْد بن غفلة ، من زهده وتواضعه ، رحمه الله(٢) .

الحسَن بن عَرَفَة ، أبو عليّ العَبْدِيّ :

قال رحمه الله : كَتَبَ عنِّي خمسةُ قرونٍ .

قال الذهبيُّ : يعني : خمس طبقات ؛ فالطبقة الأولى : ابن أبي حاتم ، والثانية : ابن أبي الدنيا ، والثالثة : طبقة ابن خُزَيْمة ، والرابعة : طبقة المحاملي ، والخامسة : الصفار .

عاش - رحمه الله - مائة وعشر سنين(٣) .

---

(١) السير ٢١ / ٥ - ٣٩ .

(٢) السير ٤ / ٧٢ .

(٣) السير ١١ / ٥٤٩ .

عليّ بن خشْرَم : الحافظ الصَّدُوق :

وُلد سنة ستين ومائة ، ومات سنة سبع وخمسين ومائتين .

قال أبو رجاء : سمعتُهُ يقول : صُمْتُ ثمانيةً وثمانين رمضانًا[(١)] .

أبو القاسم البَغَويّ :

قال الدارقطني : ثقةٌ جَبَل ، إمام من الأئمة ثَبت .

كَتَب الحديث بخَطِّه وكان سِنه يومئذٍ عشر سنين ونِصْفًا ، ولا يُعلم أحد طَلَبَ الحديث وكَتَبَه أصْغَر منه .

ومات – رحمه الله – وقد استكملَ مائة وثلاث سِنين وشهرًا واحدًا .

قال الذهبيُّ : قد سمعوا عليه يوم وفاته ، فذَكَرَ محمد بن شريح – في غالبِ ظنِّي – قال : كُنَّا نسمعُ على البغويِّ ورأسُه بين ركبتيه ، فرفَعَ رأسَهُ وقال: كأنِّي بهم يقولون: مات أبو القاسم البغوي، ولا يقولون: مات مُسْنِد الدُّنيا . ثم مات عَقِيبَ ذلك أو يومئذٍ ، رحمه الله[(٢)] .

حكيم بن حزام : هِمَّةٌ سَبَّاقَةٌ في الإسلام :

عاش مائة وعشرين سنة . وكان فقيه النفْس كبير الشأن .

قال البخاري في تاريخه: عاش ستين سنة في الجاهلية، وستين في الإسلام.

قال الذهبيُّ : لم يَعشْ في الإسلام إلَّا بضْعًا وأربعين سنة .

« قال حكيم بن حزام : سألتُ رسول الله ﷺ فأعطاني ، ثم سألته فأعطاني ، ثم سألته فأعطاني ، ثم قال لي : « يا حكيم بن حزام ، إن هذا المالَ خَضِرةٌ حُلْوَة ، فمَنْ أخَذَهُ بسخاوةِ نَفْسٍ ، بُورِك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفسٍ ، لم يُبارَكْ له فيه ، وكان كالذي يأكل ولا يشبع ، واليد العُليا خيرٌ من اليد السُّفلى » . فقال حكيم : فقلت : يا رسول الله ، والذي بَعَثك بالحق ،

---

(١) السير ١١ / ٥٥٣ .

(٢) السير ١٤ / ٤٤٠ – ٤٥٦ .

لا أَرْزَأُ أحدًا بعدك شيئًا حتى أُفارق الدنيا .

فكان أبو بكر يدعو حكيمًا إلى العطاء ، فيأبى أن يقبله منه ، ثم إنَّ عمر دعاه ليعْطِيَه، فأَبَىٰ أنْ يقْبلَ منه، فقال : إني أُشهِدُكم معشر المسلمين على حكيم، أني أعرض عليه حَقَّه من هذا الفَيْء فيأبى أن يأخُذه. فلم يَرْزَأْ حكيمٌ أحدًا من الناس بعد رسول الله ﷺ حتى تُوفِّي »[١] .

أعْتَقَ في الإسلام مائة رقبة .

قال مصعب بن ثابت : بلغني والله أن حكيم بن حزام حَضَرَ يوم عرفة ، ومعه مائة رقبة ، ومائة بَدَنَة ، ومائة بقرة ، ومائة شاة ، فقال : الكلُّ لله .

وقال أبو حازم : ما بَلَغَنا أنه كان بالمدينة أكْثَر حَمْلًا في سبيل الله من حكيم .

وقيل : إن حكيمًا باع دار الندوة من معاوية بمائة ألف ، فقال له ابن الزبير : بعتَ مَكْرُمَة قريش ؟ فقال : ذهبتِ المكارمُ يا ابن أخي إلَّا التقوى ، إني اشتريت بها دارًا في الجنة ، أُشهدُكم أني قد جعلتُها لله .

ولمَّا توفي الزبير لقي حكيمٌ عبدَ الله بن الزبير ، فقال : كم ترك أخي من الدَّيْن ؟ قال : ألف ألف . قال : عليَّ خمسمائة ألف . وعند موت حكيم قال : لا إله إلا الله ، قد كنت أخشاك ، وأنا اليوم أرجوك[٢] .

الحافظ الطَّبَراني :

عَلَمُ المُعَمّرِين أبو القاسم ، مُحَدِّث الإسلام . عاش - رحمه الله - مائة عام وعشرة أشهر ، في آخِر عمره استقرَّ واستوطَنَ أصبهان ، وأقام بها نحوًا من ستين سنة ينشر العلم ويُؤلِّفه ..

قال أبو بكر بن أبي عليّ: سأل أبي أبا القاسم الطبراني عن كثرة حديثه ،

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائيّ . وقوله : لا أرزَأ : أي : لا أنقص مالَهُ بالطَّلَبِ منه .

(٢) السير ٣ / ٤٤ - ٥٠ .

فقال : كنت أنام على البواري ثلاثين سنة .

شيخ الإسلام القاضي أبو الطَّيِّب الطَّبَرِيّ :

عُمِّر أكثر من مائة سنة .

« قال أبو إسحاق الشيرازي في (الطبقات) : شيخُنا وأستاذُنا القاضي أبو الطَّيِّب،تُوُفِّي عن مائة وسنتين ، لم يَخْتَلّ عقلُه ، ولا تغيَّر فَهْمُه ، يُفتي مع الفقهاء ، ويَسْتَدْرِك عليهم الخطأ ، ويقضي ، ويشهد ، ويحضر المواكب إلى أن مات . و لم أرَ في مَنْ رأيت أكْمل اجتهادًا ، وأشدَّ تحقيقًا ، وأجْوَد نظرًا منه ؛ شَرَح مختصر المُزَني ، وصنَّف في الخلاف والمذاهب والأصول والجدل كتبًا كثيرة ليس لأحد مثْلها »[(١)] .

« قال القاضي ابن بكران الشامي : **قلتُ** للقاضي **أبي الطَّيِّب** شيخنا وقد عُمِّر : لقد مُتِّعتَ بجوارحكَ أيُّها الشيخ . قال : ولِمَ ؟ وما عصيتُ الله بواحدةٍ منها قطُّ . أو كما قال »[(٢)] .

قال الخطيب : مات صحيحَ العقل ، ثابت الفَهْم[(٣)] .

الشيخ عبد العزيز بن باز والشيخ الألباني :

والشيخ ابن باز والشيخ الألباني آيتان من آيات الله في عصرنا ، في علو هِمَّة الشيوخ في حِفْظ الوقت والعُكُوف على العلم ، وإجابة السائلين ، والذَّبّ عن عقيدة السلف .. ولك أن تُقارن نفسك في هِمَّتك بهِمَّة ابن باز حين يصحو .. متى ينام ومتى يصحو ، وخُذ أروع الأمثلة بصلاته للفجر ، ثم عكوفه على تدريس الكتب بعد صلاة الصبح يوميًّا ، ثم ذهابه إلى إدارة البحوث وتَلَقِّي مئات المكالمات والرَّدّ على الفتاوى ، ومائدته التي يجلس إليها طلبةُ العلم منذ

---

(١) السير ١٦ / ١١٩ - ١٢٨ .

(٢) تهذيب الأسماء واللغات للنووي ٢ / ٢٤٧ .

(٣) السير ١٧ / ٦٧٠ - ٦٧١ ، وتاريخ بغداد ٩ / ٣٦٠ .

ثلاثين سنة .. وأمَّا لَيْلُه وقيامه وتهجُّده ، فيُخبرك وجهُه ونور القيام الذي يلوح عليه ، وانتفاخ قدميه ، لله درُّه وبارك الله في عمره .

« إنَّ منطق اليقين لا يَكترث بفوارق السِّنّ ؛ فإن العقيدة المتفجِّرة في القلوب الكبيرة تَرُدُّ الكُهُولَ الوَانِينَ ، فِتيانًا نَشِطِينَ .

هناك رجال تُطِلُّ وَقْدَةُ الشباب حارَّةً في دمهم وإن أنافوا على التسعين ، لا تنطفئ لهم بشاشة ، ولا يكبو لهم أمل ، ولا تَفْتُرُ لهم هِمَّة .

وحين نتكلَّم عن الأشياخ المجاهدين في عصرنا هذا ؛ فإنَّنا واجِدُون رجالًا من طرازٍ رائع ، صَنَعَهم الإسلامُ القويُّ فأَحْكَمَ صناعَتَهم ، وقذَفَ بهم على جند الباطل ، فجدَّدُوا سِيَرَ السابقين من المهاجرين والأنصار ، من أولئك النَّفَر الغُرِّ : عمر المختار ؛ البطل الذي بلغ التسعين من عمره وهو يجوب الصحراء ، مُطاردًا الطليان الذين أغاروا على طرابلس وعملوا على تنصيرها بالحديد والنار »[1] .

عمر المختار : شهيد الإسلام وأسد الصَّحراء :

حين يتغنَّى الجنود الإيطاليون بأنشودتهم : « أنا ذاهبٌ إلى ليبيا فَرِحًا مسرورًا .. لأبذل دمي في سبيل سحق الأُمَّة الملعونة ومحو القرآن ! وإذا متُّ يا أُمَّاه فلا تبكيني ! وإذا سألك أحدٌ عن عدم حدادك فقولي : لقد مات وهو يُحارب الإسلام ! »[2] ، يخرج إليهم أسد الصحراء بفدائية الإيمان بالله تعالى ، في أبهج وأسمى معانيها ، يُهاجمهم في « بنغازي » و « القصور » و « تكنس » و « دفنا » واختاره السيد إدريس السنوسي قائدًا أعلى للمجاهدين ، وهو فوق الستين ، وجَعَل من الجبل الأخضر مقرًّا له ، ولمَّا حاول مشايخُ قبيلته مَنْعَهُ من العودة إلى « برقة » مجاهدًا ، قال : « إن ما أسير فيه هو طريق الخير ، ومَنْ

(١) في موكب الدعوة ، للشيخ الغزالي صـ ٥٣ - ٥٤ ، دار الكتب الحديثة .
(٢) التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية - للدكتور أحمد شلبي جـ ٤ .

يُعدني عنها فهو عدوٌّ لي ، ولا ينبغي لأحدٍ أن ينهاني عنها » .

وقبل ذلك كبَّد هو ورفاقُهُ الفرنسيين في «التبستي» خسائر فادحة قبل وصول إيطاليا إلى ليبيا مستعمرة لها .

ولمَّا تولَّى عمر المختار قيادة المجاهدين، اشتدَّ أُوَار القتال بين المجاهدين والإيطاليين، وكانت معركة «الرحيبة» ومعركة عقدة المطمورة من أعظمها، وانتهت كلها بارتداد الإيطاليين ، واشتدَّ الجهاد في عامي ١٩٢٤ و ١٩٢٥ ، بوقوع معارك عِدَّة ولمع اسم عمر المختار كقائدٍ بارعٍ يُتقن أساليب الكرّ والفرّ .

ولمَّا أراد الطليان الاستيلاء على «الفزان» واحتلال عاصمتها سنة ١٩٢٨، التحم المجاهدون مع الجيش الإيطالي بقيادة « جرازياني » في معركة دامية ، استمرتْ خمسة أيام بتمامها ، وقد انهزم الإيطاليون شرَّ هزيمة ، ومرَّة أخرى حاولوا الكرَّة ، وأباد المجاهدون أكثر الجيش الإيطالي .

ومرة أخرى في « درنة » في ٢٢ أبريل سنة ١٩٢٨ يشتبك معهم في معركة عنيفة دامت يومين، وكان النصر فيها حليفه. وفي السلوم، والحجزة، ومرسى بريقة ، وجالو ، وأوجلة ، وأنزلوا بالطليان خسائر فادحة .

لله درُّك يا عمر.. تُبدِّد بحفنةٍ من الرِّجال جيوش الإمبراطورية الإيطالية، وتجعلها تفرُّ هاربةً تاركة عتادَها ومُؤَنها . لو لم تكُن من مَعدِنٍ نفيسٍ لَمَا كنت بهذه القُوَّة المُدمِّرة .. حتى يضطر موسوليني سنة ١٩٢٩ أن يُعيِّن « بادوليو » حاكمًا على ليبيا ، ويعهد إليه بالقضاء على المقاومة .

وحينما أرسلتْ إليه إيطاليا بشروطها المُزرِية ، قال : « إني لا أرضى بهذه الشروط ، وأُفضِّل الموت جوعًا وعطشًا ، ولا أُلقي بنفسي وإخواني بين أيدي الإيطاليين يتصرَّفون فينا كيف شاءوا » . وأراد الطليان أن يستميلوا عمر المختار بالمال ، فأرسلوا إليه مع « بلعون مدير الحاسة » يعرضون عليه مليون فرنك هديَّة فرَفَضَها .

وحاصر الطليان عمر المختار ، وأقاموا الأسلاك الشائكة على طولِ مسافةٍ لا تقلُّ عن ثلثمائة كيلو متر على طول الحدود الشرقية مع مصر ، فلم يضعُف بعد أن أصبح هو ورجاله منقطعين عن جميع البشر من جميع الجهات .

وفي أكتوبر سنة ١٩٣٠ تمكَّن الطليان من الاشتباك مع المجاهدين في معركة كبيرة ، وقد عثر الطليان عَقِب انتهائها على نظَّارات عمر المختار ، كما عثروا على جواده مقتولًا ، فأصدروا منشورًا حاولوا فيه أن يقضوا على أسطورة عمر المختار الذي لا يُقهر أبدًا ، وقال جرازياني مُتوعِّدًا : « لقد أخذْنا اليوم نظّارات عمر المختار ، وغدًا نأتي برأسه » .

وفي ١١ من سبتمبر سنة ١٩٣١ وصل إلى الحكومة برقية ، تُفيد أن مُصادمات وقعت بين المجاهدين وبين قوة من خيَّالة الحكومة بالقرب من « سلنطة » ، وأنَّ رجُلًا من الأهْلِين وقع في أسْرِهم ، وقد عرفه الجند وقالوا : « إنه عمر المختار نَفْسه » . قُتِل جميعُ من معه ، وقُتل حصانُه ، وظلَّ يُقاتل القوة الإيطالية إلى أن جُرح في يده ، ثم تكاثروا عليه وأخذوه أسيرًا .

وقال عمر الكلمات الغاليات الخالدات ؛ أن القَبْض عليه ، ووقوعه في قَبْضَة الطليان ، إنَّما حدث تنفيذًا لإرادة المولى عزَّ وجل ، وأنَّه وقد أصبح أسيرًا بأيدي الحكومة الإيطالية ، فالله سبحانه وتعالى وحده يتولَّى أمره ، وأمَّا أنتم فلكم الآن وقد أخذتموني ، أن تفعلوا بي ما تشاءون ، وليكُن معلومًا أني ما كنتُ في يوم من الأيام لأُسَلِّم لكم طَوْعًا[1] .

وشاءتِ الأقدار أن يقف البطل الذي حيَّر إيطاليا ، وأشاع الرُّعْب في قلوب جيشها ، أمام جرازياني الذي قطعَ رحلته إلى باريس لِيَسْتدعِي البطل في صبيحة اليوم الذي عُقدت فيه المحكمة الطائرة له .

(١) عمر المختار شهيد الإسلام وأسد الصحراء ، لمحمد محمود إسماعيل صـ ٤٧ مكتبة القرآن .

وقبل المُحاكمة بقليل جاءوا بالأسد عمر المختار مُقيَّد اليدين بالسلاسل والقيود ، وكان يسير بصعوبةٍ ، وقد غطَّى وَجْهَه بجِرامِهِ ، وظهرَ عمر المختار حينئذٍ وليًّا من أولياء الله ، لم يَنَل الأسْر والسجن شيئًا من وقاره وجلال هيبته. ودار حوارٌ بين الأسد المُسلْسَل ، وبين الجبان جرازياني :

جرازياني (مخاطبًا عمر المختار) : لماذا حاربت الحكومة الإيطالية هذه الحرب الشديدة ؟ عمر : لأن ديني يأمُرُني بذلك . جرازياني : هل كان لديك أيّ أمل في أنك سوف تستطيع إخراجنا من « برقة » ، ومعك هذا العدد القليل من الرجال الذين ينخرطون معك ، وتلك المعدَّات القليلة التي تملكها ؟ . عمر : كلَّا ، فإن هذا على ما يبدو كان أمرًا مستحيلًا . جرازياني : ماذا كان غَرَضُك إذن ؟ وماذا كنت تبغي ؟ . عمر : كنتُ مجاهدًا وكفى ، أمَّا ما يَنجمُ من هذا الجهاد ؛ فالأمر فيه موكولٌ لله وحده . جرازياني : هل أمرتَ فِعْلًا بقتْل الطَّيَّارَيْن « أوبر » و « بياتي » ؟ عمر : نعم ، فإن الرئيس وحده هو الذي يتحمَّل جميع المسئوليَّات ، والحرب هي الحرب . جرازياني : كم من الوقت يُمكنك بما لك من نفوذٍ وصَوْلَةٍ أن تُخضع الثُّوَّار في الجبل ؟ عمر : أبدًا أبدًا ، قد أقسمْنا جميعًا أن نموت واحدًا بعد واحدٍ ، ولا نُسلِّم أنْفُسنا بتاتًا ، ومن المعروف تمامًا أنِّي لم أُسلِّم نفسي إليكم . جرازياني : لا شكَّ أنك كنت طوال حياتك رجلًا شجاعًا ، وإني لأرجو أن تكون شجاعًا مهما حدثَ لك أو نزل بك . عمر : إن شاء الله .

وعَرَض جرازياني على عمر المختار عفوًا شاملًا، نظير أن يكتُب بتوقيعه نداءً للمجاهدين ، يدعوهم ويطلب إليهم أن يكُفُّوا عن القتال ، ويُسلِّموا أنفسهم وأسلحتهم للحكومة ، ورفض عمر لأسبابٍ وضَّحها جرازياني ، وهي أن هذا العمل لا يرضي ضميره ودينه ، وفضلًا عن ذلك ، فإن أحدًا لن يُصدِّق صدور هذا النداء من عمر المختار .

لقد كان عمر المختار هو عمر المختار إلى النهاية ! لقد كتب جرازياني

في مُؤلَّفه عن « برقة » أنه لا يزال يشعر بالأثر الذي أحدثته في نَفْسه رؤية عمر المختار ، وكيف أنه أدركَ لماذا كان المختارُ صاحبَ الكلمة المسموعة والرأي الأعلى بين المجاهدين .

وعُقدت لعمر المختار محاكمةٌ صُورِيَّة في الساعة الخامسة مساء يوم ١٥ سبتمبر عام ١٩٣١ في «برقة»، وتلا رئيسُ المحكمة في الساعة السادسة والربع مساء الحُكْم بإعدام عمر المختار شنقًا، فقابَلَ عمر المختار ذلك بقوله: «إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون » . وفي التاسعة من صباح اليوم التالي ، وهو يوم الأربعاء الموافق ١٦ من سبتمبر عام١٩٣١ م ، نفَّذ الطليان في « سلوق » حُكم الإعدام شنقًا في السيِّد عمر المختار ، الذي كان في السبعين من عمره .

«ودفعت الخِسَّة بالإيطاليين إلى أن يفعلوا شيئًا عجيبًا في تاريخ الشعوب، إذ إنهم أرغموا أعيان البَرْقاوِيِّينَ الذين اعتقلوهم في «بنينة » ، كما أرغموا أعيان « بنغازي » ، وعددًا كبيرًا من الأهالي من مختلف الجهات – على حضور عمليَّة التنفيذ ، فحَضَرَ ما لا يقلُّ عن عشرين ألف نَسَمَة على قول جرازياني . ويا لها من ساعةٍ رهيبة تلك التي سار فيها عمر المختار بقَدَمٍ ثابتةٍ ، وشجاعة نادرة ، وهو ينطق بالشهادتين إلى حبل المشنقة ، وقد ظلَّ عمر المختار يُرَدِّدُ الشهادتين حتى نفذ فيه الجلَّادون حكم الإعدام ، وعندما وجد هؤلاء أن عمر المختار لم يَمُتْ ، أعادوا عمليَّة الشنق مرَّةً ثانية »[(١)] .

عظمة في الحياة، وعظمة في الممات، عشتَ قاتلًا لأعداء الله ومت مقتولًا بيد أعداء الله . لله درُّك يا عمر « حتى الموت .. يموت الناس مرَّة ، وأنت تموت مرَّتيْن! لماذا؟ أَلِأَنَّ الله يريد أن يرفعك بذلك مرَّتين، ويُعطيك على ذلك أجريْن: أجر الشهيد الذي عايَنَ الموت وذَاقَهُ، ثم أجر الشهيد– مرة ثانية– الذي أراد أعداؤه أن يقتلوه مرَّة ثانية.. وتلك علامات القَبُول.. وذلك أول تاجٍ من تيجان الآخرة»[(٢)] .

(١،٢) عمر المختار شهيد الإسلام وأسد الصحراء صـ ٥٦ ، ٥٧ .

ولله درُّ شاعر الشباب التونسي وهو يقول في رثائه :

مَضَى عمرُ المختارُ لله رافِلًا بثوْبٍ نقيٍّ حِيكَ من خالِصِ الطُّهْرِ
مضى عمرُ المختارُ لله بعد ما قضَى الواجبَ الأسْمَى بأعلى ذُرَى الفَخْرِ
مضى عمرُ المختارُ لله هانئًا سعيدًا شهيدًا وانطوتْ صفحةُ العُمْر
مُخلِّفَـةً للعالميـن مآثِـرًا هي الغُرَرُ البيضاءُ في جبهةِ الدَّهْرِ
ومن دمِهِ المسفوكِ سَطَّرَ آيةً سيحفَظُهَا التاريخُ بالحَمْدِ والشّكْرِ

وما أجمل قول شوقي في رثائه :

رَكَزُوا رُفاتَك في الرِّمالِ لِواءَا يَسْتَنْهِضُ الوادي صباحَ مَساءَا
يا وَيْحهُم نَصبُوا منارًا مِنْ دمٍ يُوحِي إلى جيل الغد البَغْضَاءَا
جُرحٌ يَصيح على المَدَى وضحيَّةٌ تَتَلَمَّسُ الحُرِّيَّةَ الحَمْـراءَا
يا أيُّها السَّيْفُ المُجَرَّدُ بالفَلَا يَكْسُو السُّيُوفَ على الزَّمان مَضَاءا
تلكَ الصَّحاري غِمْدُ كُلِّ مُهَنَّدٍ أبْلَى فأحْسَنَ في العَدُوِّ بَلاءَا
لو لاذَ بالجوْزاءِ منهم مَعْقِلٌ دخلوا على أبراجها الجوزاءَا
خُيِّرتَ فاخترتَ المبيتَ على الطَّوَى لم تَبْن جاهًا أو تَلُمَّ ثَراءَا
إن البطولةَ أن تموتَ مِنَ الظَّمَا ليس البطولة أن تَعُبَّ الماءَا
أفريقيا مَهْد للأُسُودِ ولَحْدُها ضجَّتْ عليك أراجِلًا ونِساءَا
والمسلمون على اختلافِ ديارهم لا يَملكُون مع المُصابِ عَزاءَا
والجاهِلِيَّةُ من وراءِ قبورِهـم يَبكُونَ زَيْدَ الخيلِ والفلْحَـاءَا[1]
في ذِمَّةِ الله الكريمِ وحِفْظِهِ جَسَدٌ ببَرْقَةَ وُسِّدَ الصَّحْراءَا
لَم تُبْق منه رَحَى الوَقائِعِ أعْظُمًا تَبْلَى ولم تُبْقِ الرِّماحُ دِماءَا
كُرُفاتِ نسْرٍ أو بقيَّةِ ضيْغَمٍ بَاتَـا وراءَ السَّافِيـاتِ[2] هَبـاءا

---

(١) لَقَب لعنترة بن شدَّاد .

(٢) جمع « سافِيَة » ، وهي الريح التي تَذُرُّ التراب ؛ أي تنثُره وتُفرِّقه .

بطلُ البَدَاوَةِ لم يكن يَغْزو على ... تَنْكٍ ولم يَكُ يَرْكَبُ الأَجْواءَا
لكنْ أخو خيلٍ على صَهَواتِها ... وأدارَ مِنْ أعْرافِها الهَيْجاءَا
لَبَّى قضاءَ الأرض أمْسِ بمُهْجَةٍ ... لم تخش إلَّا للسماءِ قضاءَا
وافاه مرفوعَ الجَبِينِ كأنَّهُ ... سُقْراطُ جرَّ إلى القُضاةِ رِداءَا
شيخٌ تَمَالَكَ سِنّهُ لم يَنفجِرْ ... كالطفل مِنْ خوفِ العِقابِ بُكاءَا
وأخو أمورٍ عاش في سَرَّاتِها ... فتغيَّرتْ فتوقَّعَ الضَرَّاءَا
الأُسْدُ تَزأرُ في الحديد ولن ترى ... في السِّجنِ ضِرْغامًا بَكى اسْتِخْذَاءَا
وأتى الأسيرُ يجُرُّ ثِقْلَ حديدِهِ ... أسدٌ يُجَرْجِرُ حَيَّةً رَقْطاءَا
عضَّتْ بساقَيْهِ القيودُ فلم يَنُؤْ ... ومَشَتْ بهيكلِهِ السُّنون فَناءَا
تسعون لو ركبتْ مناكِبَ شاهِقٍ ... لترجَّلَتْ هَضَباتُهُ إعياءَا
خَفِيتْ عن القاضي وفاتَ نصيبُها ... مِن رفْقِ جُنْدٍ قادةٍ نُبلاءَا
والسِّنُّ تَعْطِفُ كلَّ قلبِ مُهَذبٍ ... عرفَ الجُدُودَ وأدركَ الآباءَا
دَفعُوا إلى الجلَّاد أغْلَبَ ماجِدًا ... يأسُو الجِراحَ ويُطلِقُ الأُسَرَاءَا
ويُشاطِرُ الأقرانَ ذُخْرَ سلاحِهِ ... ويَصُفُّ حولَ خِوانِهِ الأعداءا
وتخيَّروا الحبل المَهِينَ مَنِيَّةً ... لِلَّيْثِ يَلْفِظُ حولَهُ الحَوْباءَا(١)
حَرَمُوا المماتَ على الصَّوارِمِ والقَنَا ... مَنْ كان يُعطي الطعنةَ النَّجلاءَا
يا أيُّها الشعبُ القريبُ أسَامِعٌ ... فأصُوغ في عُمْرِ الشهيدِ رِثاءَا
أم ألجَمتْ فاك الخطوبُ وحرَّمتْ ... أُذنَيْك حين تُخاطبُ الإصغاءَا
ذهبَ الزعيمُ وأنت باقٍ خالدٌ ... فانْقُدْ رجالَكَ واخْتَرِ الزُّعَمَاءَا
وأرِحْ شُيُوخَك مِنْ تكاليفِ الوَغَى ... واحْمِلْ على فِتْيانِك الأعباءَا(٢)

---

(١) النفس .

(٢) الشوقيات - ديوان شوقي ٢ / ٣٤٤ ، ٣٤٧ - دار نهضة مصر .

الشيخ أحمد ياسين ، شيخ المقاومة في فلسطين :

« تحية إكبار إلى المجاهد الذي سَمَتْ به نفخةُ الرُّوح عن قَبْضَة الطِّين : إلى المجاهد الفلسطيني أحمد ياسين » :

إيهِ يا عسقلان لان الحَدِيدُ وأخو الحقِّ ثابتٌ لا يَحِيدُ
إيهِ يا عسقلانُ أحمد قلبٌ صابرٌ صامِدٌ ورَأْيٌ سَدِيدُ
سَمِعَتْ صوتَهُ القيودُ يُناجي ربَّهُ فانْثَنَتْ إليهِ القيودُ
وبكَى السجنُ حين أصغَى إليه وهْو يتلو والواهِمون رُقُودُ
أيُّها الشيخ ما لِعينِكَ تَهْمِي ولماذا يَطُول منك الشُّرودُ
جالسٌ أنت والطُّغاةُ وُقُوفٌ وحَوالَيْكَ قد أُقِيمَ الجنودُ
أنا يا شيخ ما رأيتُكَ إلَّا في صلاةٍ يَطُولُ فيها السجودُ
أنا يا شيخُ ما رأيتُك إلَّا داعِيًا مِنْ دعائِهِ يَستزِيدُ
كلُّهم خائفون منك لماذا أيخافُ القعيدَ جيشٌ عَتِيدُ
قال لي الشيخ وهْو يُرسلُ نحوي نظرةً وَقْعُها عليَّ شديدُ
أيُّها السَّائِلُ المُلِحُّ لأني لائذٌ بالذي إليه نَعُودُ
خافني المعتدي وإلَّا فإني أيُّها السَّائلُ المُلِحُّ قَعِيدُ
يا ابن ياسينَ أين رِجْلاكَ مهلًا فَثَبَاتي على الجهادِ أكِيدُ
في دمي فَوْرةُ الغَيُورِ وقلبي مُشرِقٌ بالهُدَى وعزْمي جديدُ
ثَقُلتْ هِمَّتي على الجسم حتى آدَهُ حَمْلُها فلم يَقْوَ عُودُ
شُلَّ جسمي وإنَّما الجسم طينٌ سوف يَسْطُو عليه في القبرِ دودُ
أيُّ نفعٍ للجسمِ والقلبُ خاوٍ أيّ نفعٍ للجسمِ وَهْوَ بَلِيدُ
كم نَرَى بيننا جُسُومًا عِظامًا نفَّذَتْ ما يُرادُ لا ما تُريدُ
شَلَلي لم يُصب مِنَ الرُّوحِ شيئًا وبُروحي أطيرُ حيث أُريدُ
أنا يا سائلي تجاوزتُ نَفْسي وتجاوزتُ ما تَحُدُّ الحدودُ
يَخْرُجُ الحَزْمُ من عَباءَةِ صَمْتي وإليها إذا أردتُ يعودُ

قلتُ للجسمِ حين أُقْعِدَ مهلًا فأنا لن ينالَ عزْمي القعودُ
أنا قلبي مُعَلَّقٌ بإلهي فمدى ما يُريدُ قلبي بعيدُ
قَبْضَةُ الطينِ لن تُكَبِّلَ رُوحي فالفضاءاتُ مسرحي والوجودُ
حين أتلو القرآنَ يخصبُ قلبي ويَطِيبُ التسبيحُ والتحميدُ
مِنْ عُبُودِيَّتِي لِرَبِّي انطلاقي أنا حُرٌّ بها فأين العبيدُ
لستُ عبدًا يا سائلي لِفُلانٍ وفلانٍ مِمَّن سَجَاياهُ سُودُ
أَرْفَعُ الكفَّ للسماءِ وحَسْبِي أنَّ كَفِّي بخَيْبَةٍ لا تعودُ
خالِقُ الكونِ مالكُ المُلْكِ عَوْني فَلْيَنَلْنِي بكَيْدِه مَنْ يَكِيدُ
مُقْعَدٌ أيُّها الصَّدِيقُ ولكنْ مِنْ قُعُودي هذا يخافُ اليهودُ
أوعَدُوني ولستُ أخشى وعيدًا بَشَرِيًّا فعِنْدَ ربِّي الوعيدُ
سجنوني مُؤَبَّدًا وهو وهمٌ إنَّما في القيامةِ التَّأْبِيدُ
يا شَيْخَنا تُضامُ وتُؤْذَى وعلى ما جرَى تُقامُ الشُّهودُ
ثُمَّ تُنْسَى ويُحْتفَى بسلامٍ ساقَنا نحوَهُ العدوُّ اللَّدُودُ
يا ابن ياسينَ كم يُمَزِّقُ قلبي ذُلُّ قومي ولَهْوُهم والصُّدُودُ
لو شكا كلبُ سائحٍ أجنبيٍّ لَرَأَيْنا ما يصنعُ التهديدُ
واليتامى من أُمَّتي والصَّبايا حظُّهنَّ الإرهابُ والتشريدُ
أين مِنْ أُمَّتي عُمَيْرٌ وسعدٌ والمُثَنَّى وخالدٌ وسعيدُ
أين مِنْ قادةِ الجيوشِ صلاحٌ أين مِنْ ساسةِ البلادِ الرَّشِيدُ
أين قُطزٌ لَمَّا تَهاوَى تَتارٌ عند أقدامِهِ فعَزَّتْ بنودُ
يا ابنَ ياسينَ ما يزالُ بقلبي لهبٌ من جراحِهِ ووقُودُ
لم أزَلْ أذكُرُ الظلامَ وَئِيدًا آهِ مِمَّا جَنَى الظلامُ الوئيدُ
ليلةٌ أظلمتْ وغامتْ فَسَلْنِي كيف كانت بُرُوقُها والرُّعُودُ
كيف سالتْ مَدامِعُ المجد فيها وشكا فَوْرَةَ الدماء الوَرِيدُ
كُنتَ في السجنِ تَشربُ الليلَ سُهْدًا وعلى الذُّلِّ تنطوي «مدريدُ»

كنتَ في سجدةِ التهجُّدِ تدعو　　وصلاةُ المُفاوِضِينَ الكُنُودُ
أين «رِبْعِيُّنا» المُفاوِضُ عَنَّا　　أين منَّا «المُغيرةُ» الصِّنْدِيدُ
أنْذَرَا «رُستُمًا» فلا البحرُ بحرٌ　　عندما أنْذَرَا ولا البيدُ بيدُ
أين منَّا يا شيخُ دُهْمُ المطايا　　ساقَها العَزْمُ والإباءُ يَقُودُ
قال لي الشيخُ لا تَخَفْ فلَدَيْنا　　أَمَلٌ في إلَهِنا معقودُ
لا تَخَفْ يا بُنَيَّ كَمْ مِنْ قلوبٍ　　مُظلماتٍ صفاؤها مفقودُ
كُلُّ مَنْ فاوَضَ العَدُوَّ سيبكي　　حالَهُ حين يَضحكُ التَّهوِيدُ
فَاوَضَ المعتدي ضحاياه مِنَّا　　وعلى ما جرى رقيبٌ عَتِيدُ
لَيْلُهم راكِدٌ وهم فيه عُمْيٌ　　ولنا فَجْرُنا الْمُشِعُّ الجديدُ
مَجْدُهم صورةٌ لِوَهمٍ كبيرٍ　　ولنا مجدُنا العظيمُ التَّلِيدُ
يا ابن ياسينَ لا عَدِمناك شَهْمًا　　عن حِمَى قُدْسنا الشريفِ تَذُودُ
عِشْ كريمًا فإن تَمُتْ فرجائي　　أن تقول الأمجادُ هذا الشَّهيدُ
قد يُسامُ التَّقيُّ في الأرض خَسْفًا　　وعلى الله نَصْرُهُ الموعودُ(١)

عجوز بني إسرائيل تشترط على نبيّ الله موسى ﷺ أن تكون معه في الجنة :

عن أبي موسى الأشعري قال : أتى النبيُّ ﷺ أعرابيًّا ، فأكرمه فقال له : « ائتنا » . فأتاه ، فقال رسول الله ﷺ : « سلْ حاجَتَك » . فقال : ناقة نركبُها ، وأعْنُزًا يحلبُها أهلي ، فقال رسول الله ﷺ : « عَجَزْتُم أن تكونوا مِثْل عجوز بني إسرائيل » ؟ قالوا : يا رسول الله ، وما عجوز بني إسرائيل ؟ قال : « إن موسى لَمَّا سار ببني إسرائيل من مصر ، ضلُّوا الطريق ، فقال : ما هذا ؟ فقال علماؤهم : إن يوسف لَمَّا حَضَرَه الموتُ ، أخذَ علينا مَوْثِقًا من الله أن

---

(١) قصيدة « أحمد ياسين » من ديوان « من القدس إلى سراييفو » ، لعبد الرحمن صالح العشماوي ، صـ ٤٣ - طبع : دار الصحوة .

لا نخرج من مصر حتى نَنْقُلَ عظامه[١] معنا . قال : فمن يعلم موضع قبره ؟ قال: عجوز من بني إسرائيل. فبعث إليها فأتته، فقال : دُلِّيني على قبر يوسف . قالت : حتى تُعطيني حكمي . قال : ما حكمك ؟ قالت : أكونُ معك في الجنَّة . فكَرِهَ أن يُعطيَها ذلك ، فأوحى الله إليه أن أعْطِها حُكمها . فانطلقتْ بهم إلى بحيرة موضعِ مستنقع ماءٍ ، فقالت : أنضِبُوا هذا الماءَ .فأنضَبُوا . قالت : احْتفِرُوا واستخرِجُوا عظام يوسف ، فلمَّا أَقَلُّوها إلى الأرض ، إذا الطريقُ مِثْل ضَوْءِ النهار »[٢] .

* * *

انتهى المجلد السادس ويليه المجلد السابع إن شاء الله تعالى

---

(١) هذا لا يُناقض حديث رسول الله ﷺ الذي فيه : « إن الله حَرَّم على الأرض أن تأكُل أجساد الأنبياء » . وذلك لأن العظام قد تُطلق على الجسم كله ، ففي بعض الأحاديث : أن رسول الله ﷺ قال لامرأةٍ : « مُرِي غُلامَكَ النجَّار يعمل لي أعوادًا – منبرًا – تحمل عظامي » . وهذه فائدة من كتب شيخنا الألباني ، انظر :

(٢) حسن : رواه أبو يعلى في مسنده (٧٢٥٤) ، وابن حبان في صحيحه (٢٤٣٥) ، وصحَّحه الحاكم ، وقال الهيثمي : رواه الطبراني ، وأبو يعلى ، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح .

« من فقه الدعاء » لمصطفى العدوي – دار السنة صـ ٣٩ .